

إسهامات العرب والمسلمين في العلوم بعيون الغرب اعترافات المفكر "غوستاف لوبون"

مسعودي هشام:

جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس

مقدمة:

أصبحت دراسة التاريخ بشكل عام وتاريخ العلوم بشكل خاص، تحتل أهمية إستراتيجية قد تفوق في أهميتها الكثير من العلوم الأخرى ذات الطبيعة الإنسانية؛ وذلك في ظل انتشار ثقافة العولمة، ومحاولة سيطرة ثقافة القطب الواحد، لذلك فقد أصبح خطر الهيمنة الثقافية تحت شعار ما يسمى بالعولمة الثقافية الشغل الشاغل لكثير من المثقفين والاكاديميين، فضلا عن المؤسسات العلمية والجامعات والاكاديميات لدى كثير من الدول، لقد تنبهت بعض الأمم التي تتمتع بإرث ثقافي وحضاري هامين إلى خطر هذا الغزو الثقافي والفكري، فبدأت تعمل على إعادة النظر في برامجها التعليمية، وذلك باتجاه ضرورة تعريف أجيالها، وبالأخص جيل الشباب، بإرثها الحضاري والثقافي ومدى ما ساهمت من خلال هذا الإرث في بناء الحضارة الإنسانية، وهذا بالفعل ما نشهده مؤخرا في كثير من دول أوروبا الغربية وبعض الدول الآسيوية كالصين واليابان، ولاشك أن إرثنا الحضاري العلمي العربي الإسلامي يحتل أهمية خاصة؛ إذ يشكل أساسا بنت عليه أوروبا نهضتها العلمية الحديثة.

قد يتساءل المرء عن جدوى بذل مثل هذا الوقت والطاقات المادية والبشرية من أجل العودة إلى دراسة الماضي، وللإجابة ببساطة شديدة على هذا التساؤل لابد لنا أن ندرك أن حضارات الأمم تقاس بمقدار تقدمها في ميادين العلوم والفنون، وتستمد الأمة تقدمها من تاريخها و تراثها، وخاصة من تاريخها وتراثها العلمي، فامة لا تاريخ لها، لا مستقبل لها. ولقد اهتمت الأمم المتقدمة بهذا التراث العلمي وفلسفته فكرست له أقساما خاصة في جامعاتها، ورصدت له الميزانيات الكبيرة لإنشاء معاهد ومراكز خاصة يعمل فيها علماء كرسوا العمر للبحث في التراث وتاريخه.

ولم يقتصر اهتمام هذه الجامعات وهذه المعاهد على دراسة تاريخ علوم الأمم التي تنتسب إليها، بل إنها اهتمت أيضا بالتراث العلمي العالمي، وفي مقدمته التراث العلمي العربي الإسلامي، وذلك لأن أوروبا استمدت الكثير من علومها من العرب المسلمين فكان لا بد لها لكي تفهم جذور انبعاث نهضتها العلمية أن تهتم بالعلوم العربية الإسلامية بالإضافة إلى المراحل التي مرت فيها تلك العلوم وأصولها ورجالاتها، وبالرغم من تجاهل الكثير من المؤسسات العلمية الغربية للدور الإيجابي والهام الذي اضطلع به العلماء العرب المسلمون ومساهماتهم في بناء الحضارة الإنسانية، إلا أنه يوجد بعض المستشرقين من المنصفين أمثال "ديستارلبو" الذي قال يوما إن العلماء العرب المسلمين هم الذين مدّنوا أوروبا، وأمثال "سيتيو" عندما قال إن أوروبا مهما جحدت فضل العلماء العرب المسلمين فلن تستطيع أن تنتزع بصماتهم من فوق قبة السماء لأن النجوم والمجرات تحمل أسماء عربية.

لهذا كله كان الأجدر بنا نحن العرب أن نهتم بهذا التراث وتاريخه وفلسفته، فدراسة الماضي هي التعرف على الذات واستشفاف المستقبل وعنصر من عناصر العزة الوطنية، بل وإن الاهتمام بتاريخ العلوم دليل واضح على الرقي الفكري والحضاري.

إضافة لذلك فهناك العديد من الأسباب الموضوعية التي تفرض علينا الاهتمام بدراسة تاريخ العلوم، هذه المقالة دراسة في إسهامات العرب والمسلمين في العلوم بعيون الغرب إعتراقات المفكر "غوستاف لوبون"، تطمح إلى تقديم صورة أكثر وضوحاً للتفكير العلمي في الحضارة العربية الإسلامية، والهدف إبراز الحقائق في هذا التاريخ العلمي الحضاري العظيم لإزالة الغموض والأخطاء التي سُجلت عمداً أو سهواً، لكنها في الوقت نفسه تؤكد بموضوعية الجوانب العلمية التي كان للعرب والمسلمين الفضل فيها على تطور سائر العلوم سواء في الغرب أو الشرق.

والهدف من الدراسة هو تعزيز التواصل بين القراء المهتمين بتاريخ العلوم، وتجلية أثر العلماء المسلمين في تقدم الحضارات في الجوانب العلمية، بالإضافة إلى توثيق شهادات العلماء غير المسلمين في إنصاف إنجازات المسلمين العلمية.

وما يدعو للأسف الشديد بأن الكثير من العلماء العباقرّة العرب والمسلمين الذين قدموا للبشرية عصارة أفكارهم وساهموا مساهمة فعالة في تطور الحضارة الإنسانية أن تبقى أسماؤهم وأعمالهم مغيبة من ضمير

أبناء هذه الأمة وأجيالها، والدراسة ترفع همة المسلمين في تاريخهم الذي ابتعدوا عنه، وصاروا يسخرون منه ومن ماضي أجدادهم الذين سادوا العالم بالعلم في وقت كان العالم غارقاً بالجهل والظلام.

ولعلَّ أبرز إسهامات المسلمين في المجال العلمي كان في العلوم الطبية، تلك العلوم التي تتصل بصحة الإنسان، لهذا فإن الإنجازات والإسهامات الهائلة التي شملت جميع فنون العلوم والمعرفة ما كانت لتكون لولا دين الإسلام، ومن الصعب أن نلم في هذه العجالة بما أنجزه المسلمون عبر القرون السابقة، وسنقصر الحديث على الإسهامات والإنجازات التي كان لها أثرها المباشر في التقدم الحضاري الإنساني الذي نعيشه اليوم. بالرغم من أن الكثرة الغالبة من علماء الغرب قد أعماها التعصب والحقد، فلم تعترف للعلماء العرب بأي إنتاج، بل منهم من استعمل الألفاظ النابية في وصف الإنتاج العلمي العربي والعلماء العرب، فرماهم بالبربرية والجهالة، ومنهم من تجاهل إطلاقاً هذه الحقبة الوضاء في تاريخ العلم العربي، إلا أن قلة من علماء الغرب اعترفوا بفضل العلماء العرب في حفظ التراث العلمي الإنساني من الضياع، وفي متابعة التفكير العلمي الصحيح، فنقلوا العلم الإغريقي والعلم البطلمي إلى اللغة العربية، بعد أن فهموه وحذقوه، ثم أضافوا إليه وزادوا عليه، وكان لهم أعظم الفضل في خلود هذا التراث.

من الصعب وغير المألوف أن نجد باحثاً أجنبياً متخصصاً في تاريخ العلوم أن يكون محايداً ونزيهاً في حكمه على الدور الذي قام به العلماء العرب والمسلمون في تطور العلوم، وكان من هذه القلة من علماء الغرب الذين اعترفوا بفضل العلماء العرب المستشرق "جوستاف لوبون" وعلى هذا الأساس جاءت هذه الورقة البحثية لتبرز إسهامات العرب والمسلمون في شتى العلوم باعترافاتهم وذلك بعيون غربية.

لذلك سنقوم في هذه الدراسة بمقدمة تمهد للجو العام للموضوع وعرض يتضمن ثلاثة عناصر نخصص العنصر الأول لتعريف الحضارة العربية الإسلامية وفي العنصر الثاني نتناول نبذة تاريخية عن المفكر "جوستاف لوبون" أما العنصر الثالث والآخر : شهادة "لوبون" : حول دور الحضارة الإسلامية وعلماء العرب والمسلمين في العلوم، ثم ننتهي بخاتمة تتضمن بعض الأفكار والتوصيات .

العنصر الأول : تعريف الحضارة العربية الإسلامية :

من البديهي أننا لا نذهب للتعرض والوقوف على فكر المؤرخ "غوستاف لوبون" وشهادته في دور وتأثير الحضارة العربية والإسلامية في العلوم، دون أن نخرج لتعريف هذه الحضارة التي أعجب بها وتأثر بأفكارها، حيث سنقف في هذا العنصر تحديداً على المدلول اللغوي للحضارة، ثم نذهب لتعريفها في المدلول الاصطلاحي،

لندرك هل انسجم المدلول اللغوي والاصطلاحي في تعريف الحضارة ، وبعد الانتهاء من ذلك نتعرض لأهم الاتجاهات المتخذة في تعريف الحضارة من خلال التطرق لثلاثة نقاط على التوالي .

1 - الحضارة في المدلول اللغوي:

من حضر الحضور: نقيض الغيب، والغيبة، حضر يحضر حضورا وحضارة. والحضر خلاف البدو، والحاضر خلاف البادي، والحضر والحضرة والحاضرة خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأن أهلها: حضروا الأمصار ومساكن الديار التي تكون بها قرار، والحضارة الإقامة في الحضر، وكان "الأصمعي" يقول: الحضارة بالفتح، قال "القطامي": فمن تكن الحضارة أعجبته فأى رجال بادية ترانا⁽¹⁾.

والحضارة مصدر متعدي، يقال حضر الغائب حضورا إذا قام، من مادة (ح ض ر) من باب نصر ينصر، بفتح عين الكلمة في الماضي ففي قول الله جل شأنه: (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية ..) البقرة/180

وضمها في المضارع ففي قول الله جل شأنه: (وأعوذ بك رب أن يحضرون) المؤمنون/98

وكما أن كلمة الحضارة توحى بمعانيها اللطيفة القالبة لأسس الدين وصفات أمتة في منظوقها ومفهومها، لأن دمج مفهوم لغة لأخرى أو خضوع مفهوم لغة لأخرى كذلك يتيه القراء غالبا في تمييز معناه اللغوي الأصلي من التابعي.. وهذا ما يحدث كثيرا في المصطلحات الغربية الحديثة، حيث إن أي مصطلح عربي في الإسلام فقهيا أو تهذيبيا فله معنى وله مقومات تختلف عن كل مصطلح وجد في غير لغة الإسلام العربية، وإن كان التشابه فيما بينهما مشاركة ضمنية أو وصفية في بعض نواحي المفهوم إلا أنه لا يعطي المعنى الكلي المتكامل للمصطلح الإسلامي العربي، لذلك ننوه بالقول: إن كل مصطلح عربي ذو صبغة إسلامية هو أصلي متبوع لا يتبع غيره، وكذلك لفظ الحضارة مصطلح تهديبي عربي وله صبغة إسلامية، " إذا رجعنا إلى اللغة العربية وجدنا أن الحضارة تعنى ضمن ما تعنى: الإقامة في الحضر، والحضر خلاف البادية تقول العرب: فلان باد وفلان حاضر، لكن هذا المعنى ليس هو كل ما هنالك من دلالات لهذه الكلمة، فقبل ذلك هناك معنى الحضور الذي هو نقيض الغيبة وأيضا: قرب الشيء والمجيء.

ومن الملاحظ أن الحضور هو أول معنى يسجله علماء اللغة لكلمة الحضارة ثم يأتي بعده المعاني الأخرى ومن جعلتها سكنى الحضر، وبرغم ذلك فإن الباحثين المعاصرين في معنى الحضارة لا يأخذون في حساباتهم المعنى الأساسي لهذه الكلمة، وهو الحضور بمعنى الشهادة وإنما يقزمون رأسا في تحديد معنى الحضارة الإسلامية إلى جعلها مرادفا للكلمة الغربية (Civilization) فتكون مرادفة لمعنى: مدينة، أو: ثقافة، فالحضارة عند

هؤلاء: من حضر يحضر، يحضر الشخص ليعمل مع الآخرين كي يتأنس ويؤنس محيطه، ومادة الحضور التي هي أول ما يظهر من معاني الحضارة في الاستعمال الإسلامي العربي تعني: الشهود، مما يشير أن معنى الحضارة إذن معنى الشهادة وهذا المعنى يشهد له القرآن الكريم حيث ورد كلمة حضر بمعنى: شهد في آيات كثيرة منها قوله تعالى: (وإذا حضر القسمة أولوا القربى... النساء/8

وأيضا: (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) البقرة/185

من هذا المنطلق يمكن القول أن الشهادة في الاستعمال القرآني هو أقرب المعاني في تحديد مفهوم كلمة الحضارة بالمعنى الإسلامي وتعني الشهادة فيما تعني، أولا: التوحيد الذي هو محور عقيدة الإسلام والذي تعبر عنه كلمة الشهادتين، وقد عبر عنها القرآن الكريم في قوله تعالى: (شهد الله أنه لا إله إلا هو...) ثانيا: التضحية والفداء وبذل الروح دفاعا عن العقيدة وعن تحرير الإنسان وتخليصه من عبادة الغير، ثالثا: شهادة الأمة الإسلامية باعتبارها أمة وسطا على سائر الأمم⁽²⁾.

وبعد أن تطرقنا للمدلول اللغوي للحضارة سنتعرض في النقطة الموالية للتعريف الذي أتى به المدلول الاصطلاحي للحضارة.

2- تعريف الحضارة في المدلول الاصطلاحي :

ويقول العلامة "ابن خلدون" في مقدمته عن الحضارة معرفا: الحضارة: (هي التفتن في الترف و استجادة أحواله والكلف بالصنائع التي تونق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيأة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الأبنية ولسائر أحوال المنزل)⁽³⁾.

وكما يقول: "ول ديورانت" صاحب "قصة الحضارة": نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي⁽⁴⁾. فأدق ما يكون من تعاريف الحضارة في نظر من حدد هو: " تناول الدنيا بروح الدين، وتناول الدين بشئون الدنيا"⁽⁵⁾.

وهذه بعض الوقفات المستطردة لعرض الحضارة الإسلامية التي بمبادئها تبين رقيها على جميع الحضارات غير الإسلامية لأن الإنسان بفطرته يميل إلى المادة والروح فالإسلام حافظ على تلك الفطرة وأما بقية الحضارات لم تراعى بين المادة والروح بالسواء، فكان الصراع في تلك الحضارات لا يزال متصادما،⁽⁶⁾ ولذلك انحطت الحضارة والنهضة فيها، وأما الواقع ليس حجة على تقدم الحضارات الغربية بل هذا التقدم الواقعي إنه بإمكانه يقوم على من هو غير الغربي، بل قام بيد كثير من أبناء المسلمين شهدت اختراعات و إبداعات حديثة وغير منحصرة، وعلى هذا الأساس من الصعب وغير المألوف أن نجد باحثا أجنبيا متخصصا في تاريخ العلوم أن يكون محايدا ونزيها في حكمه على الدور الذي قام به العلماء العرب والمسلمون في تطور العلوم

، وكان من هذه القلة القليلة من علماء الغرب الذين اعترفوا بفضل العلماء العرب المستشرق "جوستاف لوبون" وهذا بتأثره بما وصلت له الحضارة العربية الإسلامية وبالسّمات التي تميزها ، لذلك سوف نتعرض في العنصر الموالي لنبدأ تاريخه عنه .

3- الاتجاهات المتخذة في تعريف الحضارة العربية الإسلامية :

لقد تم تعريف الحضارة من خلال ثلاثة مسالك وهذا حسب الزاوية التي ينظر منها كل مسلك لذلك نعرض لبعض الاتجاهات التي قامت بتعريف الحضارة ، فهناك اتجاه مادي، وآخر روحي، وثالث يجمع بين المادية والروحية وهذا كما يلي :

الاتجاه المادي : وهذا الاتجاه سارت إليه رموز الغرب المادية لمفهوم الحضارة عامة، ففيه نجد أقوال أصحابها) كليسكليس وأتباعه وحاشيته (يقولون عن الحضارة: " إن الحضارة هي القضاء على العدل والأخلاق وترك العنان لطبيعتنا الحرة السافرة لتفعل ما تشاء ولو أدى ذلك إلى أن نسير على الجماجم في سبيل تحقيق ذلك " ثم يزيّدون هذا التعريف وضوحاً فيقولون: " إن الأخلاق ليست إلا اختراع الضعفاء لكي يقيدوا بها سلطان الأقوياء، فلنكن حرباً على الأخلاق، ويجب أن نحطم قيد العدل الظالم حسبما جاء في القانون الوضعي، يجب أن نترك العنان لطبيعتنا المطلقة ... يجب أن نكون في بنيتنا الطبيعية وفي قوتنا العقلية وفي مزاينا الخلقية، يجب أن نكون الجسارة فيما به نحيا حياة حرة سافرة في وضوح النهار إذا ما اقتضى ذلك أن نسير في طريق من جماجم دون أن يتحرك ضميرنا بملام، يجب أن تكون لنا قلوب قاسية، يجب أن نرسل صرخة الحرب دون وجل أو ندم في وجه مصطلحات العالم ومصطلحات أخلاق القطيع"⁽⁷⁾

الاتجاه الروحي : ففي هذا الاتجاه الذي نجده سلك مسلكاً في الروحية دون المادية بحيث يرى أصحاب هذا الاتجاه أن التقدم والرفق لا يتحقق إلا بالروحية كما يرى ذلك "النرفانا" ومن تبعه (Nnirvana) ذلك الحقيق الساعي كي يحقق رقيه وخلاصه — إلى الفناء والتلاشي والذوبان .. الفناء في ذات الإلهية"⁽⁸⁾

ويقول: "كلود دلماس" عن الحضارة بأنها: "تربية الضمير واستعمال الثقافة والعقل في البحث عن الأفضل"⁽⁹⁾ ويقول "غوستاف لوبون": عن الحضارة بأنه: "هي النضوج الآراء والمبادئ والمعتقدات وتغيير مشاعر الإنسان إلى الأفضل"⁽¹⁰⁾

الاتجاه الذي يجمع بين الجانب المادي والروحاني : حيث يقول الشيخ "محمد قطب" عن الحضارة بأنها: "ذات قيم ثابتة وأشكال مادية وتنظيمية نامية ومتغيرة على الدوام"⁽¹¹⁾ حيث يقول "ول ديورانت": عن الحضارة بأنها: "هي نظام اجتماعي يعين الإنسان على زيادة إنتاجه الثقافي بعناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، النظم السياسية، العقائد الخلقية، متابعة العلوم والفنون"⁽¹²⁾

بعد أن خالصنا من تعريف الحضارة العربية التي تأثر بها المؤرخ "غوستاف لوبون"، سندّهب لتسليط الضوء على نبذة تاريخية عن المؤرخ في العنصر الموالي .

العنصر الثاني : نبذة تاريخية عن المفكر "غوستاف لوبون" : سنتناول من خلال هذا العنصر نبذة تاريخية عن المؤرخ "غوستاف لوبون" نقطتين نتعرض في الأولى لحياة المؤلف ، ونتطرق في النقطة الثانية لأهم مؤلفاته كما يلي :

1- حياة المؤلف :

يعد الطبيب والمستشرق والمؤرخ الفرنسي "غوستاف لوبون"⁽¹³⁾ واحداً من أشهر المؤرخين الأجانب الذين اهتموا بدراسة الحضارات الشرقية والعربية والإسلامية. ولد الطبيب "غوستاف لوبون" في مقاطعة "نوجيه لوروترو" بفرنسا في 7 مايو 1841 - توفي في 13 ديسمبر 1931 درس الطب، ومن ثم توجه للأنتروبولوجيا وعكف على دراسات علم النفس وخاصة الاجتماعي وقام بجولة في أوروبا وآسيا وشمال إفريقيا، كتب في علم الآثار وعلم الأنثروبولوجيا، وعني بالحضارة الشرقية. من أشهر آثاره: حضارة العرب وحضارات الهند وباريس 1884 "والحضارة المصرية" و"حضارة العرب في الأندلس" و"سر تقدم الأمم" و"روح الاجتماع" الذي كان انجازه الأول. هو أحد أشهر فلاسفة الغرب وأحد الذين امتدحوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية، لم يسر "غوستاف لوبون" على نهج معظم مؤرخي أوروبا، حيث اعتقد بوجود فضلٍ للحضارة الإسلامية على العالم الغربي. اهتم بالطب النفسي وأنتج فيه مجموعة من الأبحاث المؤثرة عن سلوك الجماعة، والثقافة الشعبية، ووسائل التأثير في الجموع، مما جعل من أبحاثه مرجعاً أساسياً في علم النفس، ولدى الباحثين في وسائل الإعلام في النصف الأول من القرن العشرين، قام بدراسات متخصصة في علم النفس والاجتماع. يُعتبر الطبيب الفرنسي غوستاف لوبون أحد أشهر المستشرقين والمؤرخين وعلماء الأنثروبولوجيا الذين أولوا اهتماماً بالغاً بدراسة الحضارات الشرقية على وجه العموم والعربية والإسلامية منها خاصة ، حيث منحته جولاته التي قام بها في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا الفرصة لاكتشاف هذه الحضارات الموعلة في القدم. كما عُرف عنه اهتمامه بالطب النفسي على وجه الخصوص الأسس النفسية للشعوب وتُعتبر أبحاثه اليوم بمثابة مرجعية في علم النفس وخاصة تلك التي تناولت سلوك الجماعات وكيفية تأثير الجماهير على الفرد. نذكر على سبيل المثال لا الحصر كتابه الأشهر سيكولوجية الجماهير الذي حقق نجاحاً منقطع النظير وجعل نجم "غوستاف لوبون" يلمع في الأوساط العلمية⁽¹⁴⁾ ، وقد ساهم "لوبون" في الجدل الدائر حول المادة والطاقة، وألف كتابه «تطور

المواد» الذي حظي بشعبية كبيرة في فرنسا، وحقق «لوبون» نجاحاً كبيراً مع كتابه «سيكولوجية الجماهير»، ما منحه سمعة جيدة في الأوساط العلمية، اكتملت مع كتابه الأكثر مبيعاً «الجماهير: دراسة في العقل الجمعي». ما جعل صالون «غوستاف لوبون» من أشهر الصالونات الثقافية التي تقام أسبوعياً، لتحضره شخصيات المجتمع المرموقة مثل: «بول فالري»، «هنري برغسون»، و«هنري بوانكاريه». عُرف «لوبون» بأنه أحد أشهر فلاسفة الغرب الذين أنصفوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية، فلم يسر على نهج مؤرخي أوروبا الذين صار من تقاليدهم إنكار فضل الإسلام على العالم الغربي، لكن «لوبون» الذي ارتحل في العالم الإسلامي وله فيه مباحث اجتماعية، أقر أن المسلمين هم من مدنوا أوروبا، فرأى أن يبعث عصر العرب الذهبي من مرقدته، وأن يبديه للعالم في صورته الحقيقية؛ فألف عام ١٨٨٤ كتاب «حضارة العرب» جامعاً لعناصر الحضارة العربية وتأثيرها في العالم، وبحث في أسباب عظمتها وانحطاطها وقدمها للعالم تقديم المدين الذي يدين بالفضل للدائن، توفي «لوبون» في ولاية «مارنيه لأكوكيه» بفرنسا 1931.

2- مؤلفات المؤرخ «غوستاف لوبون» :

امتاز «لوبون» بغزارة نتاجه العلمي ولذلك وكان من أبرز مؤلفاته «حضارة العرب» و«سيكولوجية الجماهير»، وكان اسم لوبون لوحده كافياً لتجد الصالون الثقافي الأسبوعي المخصص له يُعج بالشخصيات المرموقة والمؤثرة في المجتمع، ولم يقتصر نشاط «غوستاف لوبون» على هذا المجال فحسب بل له إنتاج غزير أيضاً في علم الآثار والأنثروبولوجيا، وتجدر الإشارة إلى أن أبرز مؤلفات «لوبون» تُرجمت إلى العربية من قبل «عادل زعيتر» ونذكر منها: روح الثورات والثورة الفرنسية، فلسفة التاريخ، اليهود في تاريخ الحضارات، الآراء والمعتقدات، حضارة العرب، السنن النفسية لتطور الأمم، روح الجماعات، روح التربية، روح السياسة، حياة الحقائق، حضارات الهند، روح الاشتراكية.

وبعد أن انتهينا من نبذة التاريخية عن المؤرخ «غوستاف لوبون» سنستعرض في العنصر الثالث شهادة «لوبون»: حول دور الحضارة الإسلامية في العلوم.

العنصر الثالث : شهادة "لوبون" : حول دور الحضارة الإسلامية وعلماء العرب والمسلمين في العلوم :

لاشك أن شهادة الطبيب والمفكر والمؤرخ "غوستاف لوبون" عن الحضارة العربية كانت من فراغ ، بل الأكيد أن شهادة غير العربي لدليل قاطع على مدى إسهام هذه الحضارة في تاريخ العلوم ، لذلك سنعالج هذا العنصر من خلال نقطتين نتطرق في النقطة الأولى لقراءة في كتاب حضارة العرب للمؤرخ "غوستاف لوبون" والذي يعد من أمهات الكتب إنصافاً لهذه الحضارة ، وبعدها نقف من خلال النقطة الثانية على النهج الذي اتبعه المؤرخ "غوستاف لوبون" في الدفاع عن الحضارة العربية وتاريخ العلوم كما سيأتي :

1- قراءة في كتاب حضارة العرب للمؤرخ "غوستاف لوبون" :

قام "غوستاف لوبون" برحلات عدة ومباحثات اجتماعية خلال حياته في العالم الإسلامي ، اعتقد بموجبها أن المسلمين هم من مدّنوا أوروبا ، وقد عبّر عن آرائه بالمسلمين وحضارتهم في كتاباته ، حيث ألف في سنة 1883 كتاب حضارة العرب الذي سلك فيه طريقاً نادراً ، إذ جمع فيه عناصر عديدة مما أثرت به الحضارة العربية على العالم ، وبحث في قيام دولتهم وأسباب عظمتها وانحطاطها ، ويعد كتاب حضارة العرب - تأليف "جوستاف لوبون" ، من أشهر الكتب التي أنصفت الحضارة العربية ، والذي - ترجم إلى العربية من طرف "عادل زعيتر" ، ظهر هذا الكتاب عام 1883 ، يشتمل الكتاب على 10 لوحات و 4 خرائط و 363 صورة وفق تصوير المؤلف الفوتوغرافي ووفق أصح الوثائق يعرض كتاب "حضارة العرب" تأثير الحضارة العربية في أوروبا وفي العالم ، ويؤرخ "غوستاف لوبون" في هذا الكتاب عصر العرب الذهبي وحضارته العريقة ، مجد العرب التّاليد الذي يضرب بجذوره في عمق أزمان كان فيها العرب فرسان الحضارة الذين أضاءوا العالم بأمجادهم. ويوضح لنا هذا الكتاب الأقسام التي انقسم إليها العرب ، والأمجاد التي حققوها عبر العصور المختلفة ، والمبلغ الذي وصلوا إليه في مختلف العلوم والآداب ، والفنون ، وسياساتهم الحربية ، والأدوات التي كانوا يستعينون بها في إدارة رعى العرب ، والنقود التي كانوا يستخدمونها عبر العصور المختلفة. وقد ذكر الكاتب طرفاً من أخلاق العرب وعاداتهم ومكانة المرأة عندهم ؛ لما لها من دلالة على رقيهم وتقدمهم ، وقد برع الكاتب في الكشف عن أوجه هذه الحضارة ، فذكر تفوقهم في الزراعة والصناعة والتجارة ، ويمكننا أن نصف هذا الكتاب بأنه جاء كاشفاً عن مكنون الحضارة العربية ، جامعاً لعلومها ، وفنونها ، وآدابها فيما يخص كتاب حضارة العرب ، الذي يعدّ من أمهات الكتب التي صدرت في العصر الحديث في أوربا لإنصاف الحضارة العربية الإسلامية ، أشاد "لوبون" بأبرز الخصائص التي تميز بها العربي والمسلم من مروءة وشجاعة وغيره

واكرام الضيف وإغاثة الملهوف، ورأى "لوبون" أن سر انتشار الإسلام يكمن في وضوحه كما يكمن سر قوته في توحيدده وما أمر به من عدل ومساواة وتهذيب للنفس، ولهذا يرى أن العرب وإن تواروا عن ساحة التاريخ فإن حضارتهم وديانتهم ولغتهم وفنونهم ستبقى حية، ولم يكتفِ "لوبون" عند هذا الحد في ذكر فضل العرب على الغرب بل ذهب في كتابه إلى إجراء مقارنة بين المزاج النفسي العربي والمزاج النفسي اليهودي مُنحازاً للأول ومُنقداً الثاني أشد الانتقاد، وفي وصف بُنية العرب الجسدية يقول : إنهم مربوعوا القامة ذو تكوين حسن وهم سفع أي سمر وجباههم عريضة عالية وحواجبهم سود منفصلة وعينهم كحلّ وأفواههم جميلة وأسنانهم منضدة.

فيذكر أن: "الطب مدين للعرب بعقاقير كثيرة..ومدين لهم بفضن الصيدلة وبكثير من المستحضرات التي لا تزال تستعمل كالأشربة واللحوق واللزقات والمراهم والدهان والمياه المقطرة.. إلخ". ويقول هذا المفكر عن الحضارة العربية بقوله "وبفضل هذا التفوق والإبداع غدت جامعات العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه مطلباً لملوك أوروبا، والأمراء يَفِدُونُ إليها رغبة في العلم تارة، وفي العلاج تارة أخرى، وهو ما دعا المستشرق الفرنسي جوستاف لوبون يتمنى لو أن المسلمين استولوا على فرنسا؛ لتغدو باريس مثل قرطبة في إسبانيا المسلمة"⁽¹⁵⁾ وقال تعبيراً عن عظمة الحضارة العلمية في الإسلام: "إن أوروبا مَدِينَةٌ للعرب (المسلمين) بحضارتها"⁽¹⁶⁾.

وقال "غوستاف لوبون" أيضاً: "إن حضارة العرب المسلمين قد أدخلت الأمم الأوربية الوحشية في عالم الإنسانية، فلقد كان العرب أساتذتنا.. وإن جامعات الغرب لم تعرف مورداً علمياً سوى مؤلفات العرب، فهم الذين مدنوا أوروبا مادةً وعقلاً وأخلاقاً، والتاريخ لا يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه.. إن أوروبا مَدِينَةٌ للعرب بحضارتها.. وإن العرب هم أول من علموا العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين.. فهم الذين علموا الشعوب النصرانية، وإن شئت فقل: حاولوا أن يعلموها التسامح الذي هو أثنى صفات الإنسان.. ولقد كانت أخلاق المسلمين في أواخر الإسلام الأولى أرقى كثيراً من أخلاق أمم الأرض قاطبة"

إن العلماء لا يستطيعوا اكتشاف كل ما يتعلق بعلم معين دفعة واحدة ؛ إنما يكون ذلك بالتدريج ؛ فالعلم في نمو مستمر لا ينتهي ، ولكل عالم يبحث فيه دوره ؛ الذي يرتكز عليه من يأتي بعده ؛ ليكمل بناء صرح العلم الإنساني ، والعرب كغيرهم من البشر لم يكونوا ليتوصلوا إلى ما وجدوه ، وما صنعوه لولا إطلاعهم على معرفة وإنجازات الأمم الخالية عن طريق ترجمتهم لأثارها ، وكذلك علماء الغرب ما كانوا ليضعوا النظريات لولا إطلاعهم على معرفة الأمم ؛ وخاصة العرب ونتاجهم العلمي الغزير ، فنيوتن وغيره ما كانوا ليكونوا لو كانوا في عصر الخوارزمي وبن الهيثم

"وكلمنا أمعنا في دراسة حضارة العرب والمسلمين وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة، و لسرعان ما رأيتهم أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وإن جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة قرون مورداً علمياً سوى مؤلفاتهم، وإنهم هم الذين مدّنوا أوربا مادة وعقلاً وأخلاقاً، وإن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يفقههم قوم في الابتداء الفني⁽¹⁷⁾ .

"ولم يقتصر فضل العرب والمسلمين في ميدان الحضارة على أنفسهم؛ فقد كان لهم الأثر البالغ في الشرق والغرب، فهما مدينان لهم في تمدنهم، وإن هذا التأثير خاص بهم وحدهم؛ فهم الذين هذبوا بتأثيرهم الخُلقي البرابرة، وفتحوا لأوربا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية، فكانوا مُمدّنين لنا وأئمة لنا ستة قرون، فقد ظلت ترجمات كتب العرب ولا سيّما الكتب العلمية، مصدراً وحيداً للتدريس في جامعات أوربا خمسة أو ستة قرون، فعلى العالم أن يعترف للعرب والمسلمين بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة⁽¹⁸⁾ " .

"ولا يمكن إدراك أهمية شأن العرب إلا بتصور حال أوربا حينما أدخلوا الحضارة إليها، إذا رجعنا إلى القرن التاسع والقرن العاشر من الميلاد، حين كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ساطعة جداً، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجاً يسكنها سنيورات متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرءون، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكين الجاهلين الذين يقضون أوقاتهم في أديارهم ليكشطوا كتب الأقدمين النفيسة بخشوع⁽¹⁹⁾ .

2- نهج "غوستاف لوبون" في الدفاع عن الحضارة العربية وتاريخ العلوم :

لعل أبرز تعريف "لغوستاف لوبون" يمكن أن تعثر عليه حينما تبحث عنه هو الجملة التالية: غوستاف لوبون المؤرخ الذي لم يسر على خطى معظم مؤرخي أوربا، فلماذا لم يلتزم "لوبون" بنهج سابقه؟ ومن يطلع على مؤلفات "لوبون" وبقراءة سريعة يكتشف نزعتة العلمية المحايدة للطروحات العرقية والعنصرية المسبقة غير المبنية على مشاهدات واقعية والتي كانت سائدة آنذاك في فرنسا وفي مقدمتها نظريات "أرنست رينان" لذلك لم يكن هُمة فعلاً أن يسير على نهجٍ مخالف بقدر ما كان شغوفاً باكتشاف أسرار الحضارات العظيمة التي أثرت في البشرية. ومن أجل ذلك قام "لوبون" بجولاته ليرى ويكتشف بنفسه فكان له بالفعل نظرته الإستثنائية للحضارات العربية الإسلامية، حيث زار لوبون بين عامي 1882 - 1884 كل من: المغرب والجزائر

وتونس ولبنان ومصر وسوريا وبغداد وتركيا، و تعرف من خلال زيارته على أوجه هذه الحضارة وإسهاماتها على العالم الغربي وتأثيرها فيه إلى حد الإقرار في كتابه الشهير حضارة العرب بأن المسلمين هم الذين مدّنوا أوروبا وليس العكس. ولهذا فأبرز ما اهتم به هو البحث عن أسباب انحطاط هذه الحضارة العظيمة.

اعتبر المحايدون "غوستاف لوبون" عالماً ومؤرخاً يستحق كل تقدير وثناء ومنهم الكاتبة الأميركية "ليس وايدنر" والبروفيسور "سيرج موسكوفتشي" وآخرين، بينما عرّف الكثيرون عن متابعة أعماله واتهموه بمحاربة العرب والمسلمين، واللافت أن غالبيتهم كانوا من المتعصبين ضد العرب، ونذكر هنا أهم الانتقادات التي وُجّهت له ما إزاء ما عبر عنه صراحةً في كتابه حضارة العرب، حيث أعرب "لوبون" في كتابه عن أسفه لعدم تمكن "جمال الدين الأفغاني" من الوصول إلى فرنسا وفتح أوروبا ويرى في ذلك سبباً لتأخر نهضة أوروبا قرونًا إضافية. وعلى الرغم من ذلك لم يسلم "لوبون" من بعض العرب والمسلمين أنفسهم، حيث لم تُرق أعماله لكثيرين وتعرضت بعضها للانتقادات ومردّها الاختلاف بين النظرة اللاهوتية لهؤلاء والنظرة الواقعية التي تميز به لوبون.

ولا يسعنا إلا أن نسوق قول المستشرقة الألمانية المنصفة "زيغريد هونكه": "واننا لندين والتاريخ شاهد على ذلك، في كثير من أسباب الحياة الحاضرة للعرب. وكما أخذنا عنهم من حاجات وأشياء زينت حياتنا بزخرفة محببة إلى النفوس، وألقت أضواء باهرة جميلة على عالمنا الرتيب، الذي كان يوماً من الأيام قائماً كالحا باهتاً، وزركشته بالتوابل الطيبة النكهة، وطيبة بالعبر العابق، وأحياناً باللون الساحر، وزادته صحة وجمالاً وأناقة وروع⁽²⁰⁾.

الخلاصة : ذلك، وكلنا يعلم أن تاريخ العلوم إن لم يعلمنا شيئاً فإنه يعلمنا على الأقل أن الدعم الماديّ هو من أهم العناصر التي تؤدي إلى الإنتاج العلمي، هكذا حدث أيام المنصور والرشد والمأمون وحتى أيام هولاكو التتريّ وألغ بك وغيرهم. وهكذا حدث في العصر الحديث عندما أغدقت دولة الولايات المتحدة الأميركية بالمال على الجامعات والمؤسسات العلمية في أوائل الستينيات من هذا القرن للحاق بالاتحاد السوفياتي الذي كان قد أرسل إلى الفضاء القمر الصناعي "سبوتنيك" في أواخر الخمسينيات

فإن لم يكن لهذه المنهجية الجديدة التي ندعو إليها هنا من فائدة ففائدتها الأولى أنها تعيد الربط بين العوامل الاجتماعية بأسرها والمؤسسات العلمية التي لا يمكن الاستغناء عنها في قيام الدولة بكلمة، ما

المطلوب للخروج من دوامة التبعية العلمية هو "عبد الملك بن مروان" آخر لينظر إلى قيام الدولة الحديثة من جميع جوانبها، وليحدث ثورة اجتماعية واقتصادية وسياسية تنتج بدورها الثورة العلمية الكفيلة بإعطاء هذه الدول الزخم المعنوي والفكري، لتتمكن بدورها من اللحاق بدول العالم الأول.

من الملاحظ مؤخرًا ازدياد الاهتمام الكبير لدى الأوساط العلمية في دراسة النتاج العلمي للعرب والمسلمين خلال مرحلة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وذلك لأسباب عديدة أهمها؛ الوقوف في وجه العولمة أو محاولات فرض ثقافة القطب الواحد، كما أن هذا الاهتمام كان هدفه في كثير من الأحيان دحض بعض المقولات التي تروج لها بعض المؤسسات العلمية في الغرب من أن عقلية العربي أو المسلم غير قادرة على تسلم زمام البحث العلمي، كذلك يفيد دراسة تاريخ العلوم عند العرب في الوقوف على العوامل الموضوعية التي هيأت مثل هذا النتاج والإبداع العلميين الذين تحققوا على أيدي العلماء العرب والمسلمين الأوائل على مدى ثمانية قرون من جهة، وعلى الأسباب التي أدت إلى اضمحلال هذا الإبداع من جهة أخرى، كل ذلك من أجل تهيئة تلك العوامل مرة أخرى، وذلك للعمل على استعادة التمسك بزمام البحث العلمي من جديد، وبالتالي مواجهة الضعف والوهن العلمي الذي نعيشه اليوم.

نوضح بأن الحضارة الإسلامية تمكنت من بلوغ مرحلة الإمبراطورية، بسبب قدرتها على الانفتاح على الأجناس الأخرى التي شكلت النسيج الاجتماعي والثقافي للحضارة الإسلامية، معتبرا أن تطور العلوم لم يساير تشكل الإمبراطورية إلا بعد مرور قرن، وأرجع أسباب تطور العلوم لدى العرب إلى عدة عوامل، منها الانفتاح على الإرث الإنساني، وترجمة آثار أجناس غير عربية على غرار الفرس واليونان، والانفتاح على ثقافات وعلوم الهند واليونان وما تركه الأنباط وغيرهم، وعليه فإن العالم الإسلامي قدم نموذجا للإنسانية في ما يتعلق بالبيئة التي تتطور فيها العلوم، وإن الجدل والنقاش الذي دار بين المسيحيين والمسلمين، ساهم إلى حد كبير في جعل العرب يكتشفون علوم الآخرين

في الختام إن العمل العلمي الذي قدم في هذا الدراسة يدل بصورة قوية على أن الحضارة الإسلامية تشغل مكاناً مرموقاً بين حضارات العالم المختلفة، وذلك بفضل ما قدمته للإنسانية من علوم أفادت منها، وكانت بمثابة الأساس القوي المتين الذي قامت عليه الحضارة الغربية الحديثة، وفي النهاية نقدم توصية للباحثين لكشف أسرار معظم هذه المؤلفات التي مازالت مخطوطة، فهي تستحق أن ننفض عنها غبار السنين بالدراسة والاستيعاب والفهم والتحقيق، لعلنا نكشف عما تحتويه من كنوز مازالت فاعلة حتى اليوم .

الإحالات والهوامش :

- 1 - راجع: لابن منظور - لسان العرب - بيروت لبنان - دون ذكر سنة الطبع ، ص 4 196.
- 2 - أنظر: د. نصر محمد عارف - نظريات التنمية السياسية المعاصرة، دار المعارف القاهرة، 1998، ص 105.
- 3 - أنظر: ابن خلدون - ديوان المبتدأ والخبر في وصف البربر والعجم ومن سبقهم من ذوي الشأن الأكبر - المعروف اختصاراً - مقدمة - بتحقيق/علي عبد الوافي - 2 888.
- 4 - أنظر: لول ديورانت - مقدمة الحضارة - ترجمة د/زكي نجيب 1 3.
- 5 - أنظر: د. رمضان أحمد - الخلافة في الحضارة الإسلامية - ص 4.
- 6 - أحمد فؤاد باشا - التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة - دار المعارف القاهرة مصر، 1403 هـ، ص 123، راجع أيضاً: د. محمد حسين محاسنة - أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين - دار الكتاب الجامعي الإمارات العربية المتحدة العين - الطبعة الأولى، 2000 2001، ص 96.
- 7 - أنظر: أندريه كرش - المشكلة الأخلاقية والفلسفة - تعريب الدكتور عبد الحليم محمود وآخرين - دون ذكر الناشر - دون ذكر سنة طبع -، ص 32 راجع أيضاً: للدكتور/توفيق يوسف الواعي - الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص 32-33.
- 8 - أنظر: د. محمد عمار - العطاء الحضاري للإسلام - دار المعارف بالقاهرة مصر - سلسلة: اقرأ برقم 626، 1986، ص 60.
- 9 - أنظر: توفيق وهبة - تاريخ الحضارة الأوربية - مكتبة الفكر الجامعي القاهرة مصر، دون طبعة، ص 5.
- 10 - أنظر: جوستاف لوبون - روح الجماعة - ترجمة عادل زعيتير - دار المعرفة بمصر، 1984، ص 17.
- 11 - أنظر: محمد قطب - واقعنا المعاصر، دار نشر مصر، دون ذكر سنة الطبع، ص 94.
- 12 - أنظر: لول ديورانت - نشأة الحضارة - ترجمة د/زكي نجيب 1 3.
- 13 - جوستاف لوبون 'Gustav Lobone' (1841 - 1931م): مستشرق فرنسي، قام بدراسات متخصصة في علم النفس والاجتماع من أشهر كتبه: حضارة العرب، الذي يعد من أمهات الكتب التي صدرت في العصر الحديث في أوربا لإنصاف الحضارة العربية الإسلامية.
- 14 - د. هنادي الشوا - غوستاف لوبون المستشرق الذي أنصف العرب - مقال منشور في صحيفة العرب - نُشر في 09 11 2014، العدد: 9733، ص 9.
- 15 - جوستاف لوبون - حضارة العرب - ترجمة عادل زعيتير - الهيئة العالمية المصرية للكتاب، سنة النشر للكتاب مؤلفه، 1883، ونشرته مترجماً 2000، ص 13، 317، أو على الرابط: <http://mybook4u.com>.
- 16 - جوستاف لوبون - حضارة العرب - المرجع نفسه، ص 566.
- 17 - جوستاف لوبون - حضارة العرب - تعريب عادل زعيتير، ص 26.
- 18 - د. هنادي الشوا - المصدر السابق، ص 10.
- 19 - جوستاف لوبون - حضارة العرب - تعريب عادل زعيتير، ص 566.
- 20 - زيفريد هونكه - شمس العرب تسطع على الغرب - ترجمة: فاروق بيضون وكمال الدسوقي - منشورات دار الأفاق الجديدة بيروت، الطبعة السادسة، 1401هـ، ص 20.